بقلم

رئيس التحرير

الكوارث الطبيعية وصلاح اللّٰه جدل قديم جديد وأسئلة لا تنتهي

د.ق. أندريه زكي

رئيسُ الطائفةِ الإنجيليَّةِ بمِصْر

رئيسُ الهيئةِ القبطيَّةِ الإنجيليَّةِ للخدماتِ الاجتماعيَّةِ

ليس سؤال الإنسان حول الكوارث الطبيعية وليد اليوم، وفي الوقت نفسه هو سؤال لا يتقادم، واجتهد الإنسان عبر التاريخ في محاولة الإجابة عنه. إذ يُعتقد أن عديدًا من الأديان القديمة -من الأساطير اليونانية والرومانية إلى ديانات قبلية مختلفة- قد نشأت استجابةً لظواهر طبيعية متعددة، بما في ذلك الكوارث. وكان التصور السائد أن الكوارث تحدث لأن الآلهة غاضبة، وترسل الكوارث لعقاب البشر المذنبين. ومن هنا، نشأت الحاجة إلى تهدئة غضب الآلهة، فظهرت الطقوس والقرابين، ومعها طبقة الكهنة التي تختص بتحديد ما هو مطلوب للترضية وتنفيذه. فعلى سبيل المثال، وبحسب المؤرخ هيرودوت، المعروف بـ«أبي التاريخ»، فإن أقدم تسونامي سُجِّل، في عام ٤٧٩ ق.م، أرسله إله البحر بوسيدون Poseidon، لمعاقبة الفُرس على حصارهم لمدينة بوتيديا Potidaea. وربما كانت مثل هذه التفسيرات هي الأقرب لكونها القاعدة السائدة في معظم العصور القديمة.

ويسرد الكتاب المقدس أحداثًا يقول فيها صراحةً عن بعض الكوارث الطبيعية إنها كانت بقرار من الله كالطوفان وقصة سدوم وعمورة وغرق فرعون بعد عبور شعب إسرائيل... وغيرها من الحوادث. وهذه بالطبع رؤية صريحة لهذه الأحداث بعينها، وفي العهد الجديد -إنجيل لوقا ١٣- يشير السيد المسيح إلى حادثتين؛ واحدة بفعل البشر، وهي قتل بيلاطس لمجموعة من الجليليين، والثانية هي سقوط برج على ١٨ شخصًا في سلوام وقتلهم جميعًا. وكان رد المسيح على هذا أن سقوط البرج على هؤلاء لا يعني أنهم كانوا أشر من غيرهم. وكانت العقلية اليهودية تفسر الشرور التي تحل بالإنسان على أنها نتاج خطية الإنسان أو عقاب من الله، ونجد صدى لهذه الأفكار في معجزة المولود أعمى حين سأل التلاميذ الرب يسوع: «يَا مُعَلِّمُ، مَنْ أَخْطَأَ: هذَا أَمْ أَبَوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى؟»، أَجَابَ يَسُوعُ: «لاَ هذَا أَخْطَأَ وَلاَ أَبَوَاهُ...» (يوحنا ٩: ٢-٣).

ومع تطور الفهم العلمي لطبيعة الكون بدأ الإنسان ينظر إلى هذه الأحداث والكوارث باعتبارها ظواهر طبيعية، وصار الإنسان يفهم أن العالم يسير وفق قوانين طبيعية، تؤدي أحيانًا إلى أحداث مدمرة مثل الزلازل والتسونامي والأعاصير والفيضانات... وغيرها من الكوارث. لكن رغم وجود هذه التفسيرات العلمية، يعمد البعض أحيانًا إلى تفسير الكوارث الطبيعية باعتبارها غضبًا من الله.

وظل اللاهوتيون والمفكرون يختلفون حول علاقة الله ورعايته ومحبته للإنسان وحدوث هذه الكوارث التي تقتل مئات وأحيانًا آلاف الأبرياء.

ولعل واحدة من أشهر الكوارث الطبيعية التي أثارت جدلًا كبيرًا في هذا الأمر هو زلزال لشبونة في نوفمبر ١٧٥٥ وما تبعه من تسونامي وحرائق أودت بحياة عشرات الآلاف من الأشخاص. وقد أثار زلزال لشبونة العظيم ردود فعل لاهوتية وفلسفية وعلمية من قِبَل مفكرين بارزين مثل فولتير، وجان جاك روسو، وإيمانويل كانت، ويوهان فون غوته، وآدم سميث، وجون ويسلي. ففي السنوات الخمس التي أعقبت هذه الكارثة، نُشرت مئات الكتب والمقالات والرسائل العلمية والقصائد والخُطب والمواعظ

والنصوص العلمية حول الموضوع في أنحاء أوروبا... هل كان الله هو المسؤول الوحيد؟ أم أن الطبيعة، أو مزيجًا من القوى الطبيعية، لعب الدور الأساسي؟ وربما الأهم: كيف يمكن لإله عادل وكلي القدرة أن يسمح بموت هذا العدد الكبير من الأبرياء؟ لقد كان الجدل اللاحق من أكثر الجدالات أهميةً في عصر التنوير الأوروبي.

غير أن نمط زلزال لشبونة يتكرر في كل حادث أو كارثة طبيعية تحدث. ففي عام ٢٠٢٠ ثار الجدل الكبير حول فيروس كورونا، وهل هو غضب من الله أم لا؟ وفي يناير ٢٠٢٥ في أثناء حرائق كاليفورنيا الرهيبة، أُثيرت ردود فعلٍ كثيرةٌ جدًّا بحجم النيران المشتعلة في ذلك الوقت، وربط كثيرون الكارثة بتصرُّف الممثِّلة الأمريكيَّة نيكي جلازر، في خلال حفل جولدن جلوب وقتها الذي وُصِف بالجريء؛ إذ سخرت من الله وأنكرت وجوده. وامتلأت وسائل التواصل الاجتماعي بكتابات وفيديوهات من مختلف الأديان والطوائف والمذاهب، تصف حرائق كاليفورنيا على أنها غضب من الله.

وفي رأيي الشخصي أرى أنه لا يمكن أن نقول إن الله يريد الكوارث والشرور أو يتسبب فيها. فإذا كان الكتاب المقدس يسرد بعض الأحداث الكارثية باعتبارها ردًّا على الفشل الأخلاقي للإنسان، فإن حوادث أخرى لا ينسبها الكتاب المقدس لشرور الإنسان، مثل المجاعة التي حدثت في عهد يوسف، ويشير سفر عاموس إلى زلزلة حدثت في أيام عزيا ملك يهوذا، ويربعام بن يوآش ملك إسرائيل (عاموس ١: ١). إذن فالكتاب لا يفسر كل الظواهر الطبيعية من منطلق غضب الله.

إن إيماننا بأن الله كلي الصلاح يجعل من غير المنطقي الاعتقاد بأنه يُحدِث مثل هذه الكوارث فقط للتعبير عن غضبه، وتعذيب البشر وقتل الأبرياء. كما أن إيماننا بأن الله كلي السلطان يجعلنا نرى الله بأنه سيد التاريخ، والألف والياء وهو لا يقف موقف المتفرج مما يحدث في العالم، وبأنه يستطيع أن يخرج من صورة الفوضى والدمار حياة جديدة.

وإن كان الله لا يريد الكوارث، فالعالم خلقه الله «حسنًا جدًّا» كما جاء في سفر التكوين، ولكن دخول الخطية إلى العالم عبر سقوط الإنسان أفسد هذا

النظام، ولم تَعُد الخليقة كما كانت. وهذا ما يشير إليه بولس الرسول في رسالته إلى أهل رومية: «إِذْ أُخْضِعَتِ الْخَلِيقَةُ لِلْبُطْلِ لَيْسَ طَوْعًا، بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِي أَخْضَعَهَا -عَلَى الرَّجَاءِ. لأَنَّ الْخَلِيقَةَ نَفْسَهَا أَيْضًا سَتُعْتَقُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْفَسَادِ إِلَى حُرِّيَّةِ مَجْدِ أَوْلاَدِ اللهِ. فَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْخَلِيقَةِ تَئِنُّ وَتَتَمَخَّضُ مَعًا إِلَى الآنَ». (رومية ٨: ٢٠-٢٢). هذا «الأنين الكوني» يعكس حال العالم في ظل الفساد والانكسار، بانتظار الفداء الكامل.

من هنا، لا ينبغي أن ننظر إلى الكوارث باعتبارها فعلًا مباشرًا من الله لمعاقبة البشر، بل كنتيجة لعالم ساقط متألم، ناتج عن حرية الإنسان وخياراته، وأيضًا عن نظام طبيعي لا ينفصل عن قوانين الخلق. لكن هذا لا يعني أن الله غائب أو غير مبالٍ، بل هو حاضر في عمق الألم، يتألم مع المتألمين، ويبكي مع الباكين، كما بكى يسوع عند قبر لعازر.

ووسط الكوارث، يتجلى دور الكنيسة ورسالتها أكثر من أي وقت، كجسد المسيح الممتد في العالم، إذ تتدخل لتضمِّد الجراح، وتقدم العون، وتشهد لصلاح الله حتى في أصعب اللحظات. فالكنيسة لا تملك تفسيرًا كاملًا لكل ما يحدث، لكنها تحمل رجاءً راسخًا بأن الله يعمل في كل شيء للخير، للذين يحبونه (رومية ٨: ٢٨).

إنّ التساؤل حول الكوارث لا يجب أن يدفعنا إلى التشكيك في محبة الله، بل إلى التأمل العميق في ضعفنا البشري، وفي دعوتنا للعمل مع الله في إعادة بناء العالم، وتضميد آلامه، وتمجيد صورته فيه. نحن لا نُدعى لفهم كل شيء، بل للإيمان، والثقة، والانخراط العملي في حياة تُظهر رحمة الله وعدله في آنٍ واحد.

لا يمكننا إذن أن نفصل الكوارث عن السؤال الأكبر المتعلق بالوجود والمعنى والرجاء. لكننا نحن المؤمنين نتمسك بأن الله معنا، وأننا في عالم ساقط لكنه ليس متروكًا، عالم ينتظر أن يُفتدى بالكامل، ويُستعلن فيه مجد الله الكامل. هذا هو رجاؤنا في خضم الألم، وهذه هي رسالتنا في وجه الدمار: أن نظل شهودًا لصلاح الله، حتى وإن عصفت الريح، وتزلزلت الأرض.